الفكر السياسي عند القديس أوغيستين: إشكالية التوفيق بين طموح السلطة الدينية ومصالح السلطة الزمنية.

The Political Thought of Saint Augustine: The Problem of Building Harmony between the Ambition of Religious Authority and the Interests of Temporal Authority.

الأستاذ الدكتور: ابرادشة فريد [1]

جامعة محمد بوضياف-المسيلة، جامعة، farid.bradcha@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2025/05/13 تاريخ القبول: 2025/06/21 تاريخ النشر: 2025/07/01

ملخص:

نتطرق في هذه الدراسة الى الفكر السياسي عند القديس أوغستين وكيف استطاع أن يتفادى التصادم المحتوم مع السلطة الزمنية للامبراطور، من دون الاخلال بمصالح الكنيسة الكاثوليكية، وهو ما دل على النظرة السياسية الواقعية الثاقبة لعواقب الأمور، حيث أدرك بأن أي صراع بين السلطتين الزمنية والدينية ستكون نتيجته في صالح السلطة الإمبراطورية التي تمتلك كل أدوات القوة والقهر والضبط والتي تعتبر اليات تاريخية لحسم أي صراع. بالإضافة الى هذا فقد تطرق أوغستين في كتاباته الى العديد من الافكار السياسية كالدولة والسلطات والعدالة والمجتمع المدني وغيرها مما أظهر قوته في التحليلات السياسية التي كانت عبارة عن فلسفة يونانية وبمسحة دينية .

كلمات مفتاحية: الفكر الاوغيستيني، السلطة الزمنية والدينية، الفكر السياسي المسيحي.

Abstract:

In this study, we address the political thought of **Saint Augustine** and how he was able to avoid clashing with the temporal authority of The Roman Emperor, without reducing the interests of the Catholic Church. This wisdom approach adopted by Augustine indicates a realistic and insightful political view of the consequences of events. because he knows that any conflict between state and religious authority would result in favor of the official authority, which possessed all the tools of power and control, which are historical mechanisms that tip the scales of conflict in favor of whoever possessed the greatest amount of power. In addition, Augustine addressed many political ideas in his writings, such as the state, authorities, justice, civil society, and others, which demonstrated his strength in political analysis.

Keywords: ; Augustinian thought; temporal and religious authority; Christian political thought.

[1]-**المؤلف المرسل:** أ. ابرادشة فريد

1. مقدمة:

إنّ المرحلة التاريخية التي جاء فيها أوغستين كانت مرحلة تاريخية مليئة بالأحداث حيث شهدت صراعات كبيرة بين رجال الدولة في الامبراطورية الرومانية المنقسمة من جهة، وبين رجال الدين من جهة أخرى، كما سبقتها مرحلة حاسمة في التاريخ المسيحي حيث تحولت الامبراطورية الرومانية من تبني الوثنية الى اعتناق المسيحية، ولكن الواقع العملي أبان على حقيقة أكيدة وهي أنّ المسيحية التي اعتنقها رجال الدين قد امتزجت بين العقائد الوثنية للحضارة الفرعونية وبين الطقوس الفلسفية وفكر ما وراء الطبيعة للحضارة اليونانية، وعليه فقد وجد الاباطرة الرومان أنّ هذا الأمر هو الذي يستمر معه وجودهم، فقاموا على عقد تحالفات مع رجال الدين بهدف تجهيل الرعية التي كانت مصدرا كبيرا للثروة والجباية.

وعلى الرغم من الشهرة الواسعة التي عرفتها أفكار أوغستين في الفكر السياسي والفلسفي العالمي، إلاّ أنّ الكثير من الباحثين قد يجهلون بسبب اسمه الروماني بأنّه قد ولد في شمال أفريقيا (مدينة سوق أهراس حاليا شرق الجزائر العاصمة، والتي تقع على الحدود التونسية. الجزائرية شرقا) أين ترعرع وتعلم ثم مارس مهنة التعليم وله نظريات فيها، كما ارتقى في سلم الرتب الكنسية من وثني لا دين له الى رجل دين عالمي، وقد كان صاحب مكانة عظيمة في الكنيسة الكاثوليكية تصل الى حد ما الى مكانة البابا في روما، كما كانت كتاباته وأعماله أكبر دليل على ذلك. أيضا لابد علينا أن نشير الى طبيعة السياق التاريخي والاجتماعي الذي ولد فيه الراهب أوغسطين حيث كان بداية لمرحلة الاضطهاد الديني الذي واجهه الموحدين من المسيحيين أمام الغطرسة التي مارستها جماعات التثليث الكاثوليكي المدعومة من طرف الإمبراطور الوثني قسطنطين الذي كان له اليد الطولى في تغيير نتائج مؤتمر نيقية First Council of Nicaea الذي انعقد في مدينة القسطنطينية حينها (إسلام بول أو اسطنبول حاليا) أين كان مقررا الاجابة عن السؤال الأعظم الذي من أجله انعقد ذلك المؤتمر، وفحوى السؤال: هل عيسى عبد من عباد الله، أم أنه ابن الله (والعياذ بالله) وقد جاء الجواب لنا نحن المسلمين في قوله تعالى: " يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا." سورة النساء، الآية 171.

إذن فقد وُلد أوغستين بعد ثلاثين 30 سنة من انعقاد مؤتمر نيقية في عام 325 ميلادية، ذلك المؤتمر الذي أقرّ عقيدة التثليث التي يعتقدها اليوم غالبية مسيحيي العالم، والذين حاول أسلافهم قدر الإمكان أن يمحوا ذكر أنصار التوحيد الخالدين الذين ينتسبون الى المجاهد " عبد الله ابن أديوس " كما هو مقرر ذلك في قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير، والذين يسميهم علماء الغرب بجماعة أريوسARIUS، وكعادة الصراع بين الشر والخير يأبى الله إلاّ أن يتم نوره فقد كان " أريوس " أو " أديوس" وأصحابه من أشد المدافعين على الفطرة السليمة للبشرية، وقد سكنوا البراري والبوادي فارين بدينهم من قسوة الامبراطور وحلفائه من الرهبان الذين اعتنقوا العقيدة الفاسدة وهي عقيدة التثليث، وفي مقدمتهم أوغستين. وعليه فقد قامت عقيدة الرجل الصالح أريوس على عبادة الله الواحد الأحد، زيادة على ايمانه الجازم بأنّ عيسى عليه السلام هو عبد لله ورسوله كما جاء في القرآن الكريم وكما تعتقد ذلك أمة الاسلام قاطبة. (ابن كثير، 2002، ص 500.) قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾. " الاية 171 سورة النساء. بل إن فاتحة الكتاب التي يصلي بها كل مسلم تذكر دائما أولئك الذين حاربوا التوحيد واعتنقوا التثليث ودافعوا عنه بقول الله جلّ وعلا بعد بسم الله الرحمان الرحيم: "غير المغضوب عليهم ولا الضالين " ففي التفسير المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى، لأنه عندما بُعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم الى البشرية جمعاء، أرسل كتابا عظيما خالدا الى يوم الدين مخاطبا فيه هرقل Hercules عظيم الروم، يذكره بالدين الحق دين الاسلام، ومن بين ما جاء في تلك الرسالة العظيمة الخالدة الى يوم الدين: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ ". وجاء في تفسير العلماء بأنّ لفظ الأريسيين أي الفلاحين الذين عاشوا في المناطق المعزولة عن المدن ورضوا بالعيش الزهيد، وهم في الحقيقة من ينتسبون الى ذلك الراهب الذي كان على دين التوحيد دين الفطرة السليمة، (عبد الله بن أريوس أو أديوس). كما إنّ دين الانبياء جميعا هو الاسلام، قال تعالى في كتابه العزيز : " أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (سورة البقرة، الآية 133). لكن عموما تبقى مسألة الهداية من تقدير الله وحده، قال تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. (سورة القصص، الآية 56)

1.1. أهمية الدراسة

من خلال هذه الدراسة سنحاول التطرق الى السجال السياسي الذي حصل في مرحلة العصور الوسطى بين الامبراطورية الرومانية (سلطة الامبراطور) ممثلة للسلطة الزمنية وبين الكنيسة بصفتها ممثلة للسلطة الدينية، والحقيقة التاريخية تؤكد بأنه منذ عصور بعيدة والصراع قائم بين السلطتين الدينية والزمنية، بل إنّ غالب الوضع في مراحل التطور السياسي للدول والامبراطوريات كان عبارة عن سجال بين الصراع والتوافق، حيث أنّ الملاحظ أن السلطات السياسية للدول عادة ما كانت تلجأ الى الاستعانة بالسلطات الدينية لكي تكسب رضا الجماهير مما يوفر لها الاستقرار ، في حين أو في المقابل تقوم المؤسسات الدينية باكتساب حرية العبادة والانتشار والتوسع...الخ وهو الأمر الذي يعطيها المزيد من النفوذ والامتيازات، باستثناء الدين الاسلامي الذي تتكامل فيه أعمال السلطتين من حيث المهام والمسؤوليات وذلك باعتمادهما على دستور واحد وهو كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم.

2.1. الإشكالية

في اشكاليتنا البحثية هذه سوف لن يكون تركيزنا على الأفكار الفلسفية والدينية، وإنما سينصب تركيزنا على الأفكار السياسية التي قدمها أوغستين للدولة وللحكام وللكنيسة ولعامة الناس كذلك، رغم كل ما هناك من ترابط وتداخل بين السياسة والدين والفلسفة، وبما أن موضوعنا هو الفكر السياسي عند أوغستين، فعلى هذا الأساس سوف ننطلق من التساؤل الرئيسي: كيف استطاع القديس أوغستين أن يوفق بين السلطتين الدينية والزمنية رغم اختلاف أهدافهما ووسائلهما.؟.رجل الدين أورليوس أوغستين: حياته، مؤلفاته، منهجه في التفكير والبحث سوف نتطرق في هذا العنصر من الدراسة وكمدخل مفاهيمي الى السيرة الذاتية لرجل الدين الذي عاصر أوج عصور قوة الامبراطورية الرومانية، ولعل من أهم ما يمكن التطرق إليه في هذا العنصر هو حياته من حيث ميلاده نشأته وتعليمه ثم تدرجه في الحياة الكنسية والرتب التي ترقى فيها ليصل الى أعلى المناصب وهي رتبة قديس مثل ما هو متعارف عليه في الألقاب الكنسية، ثم نعرج على أهم المؤلفات التي ألفها لنختتم المحور بمنهجه في البحث أو الطريقة التي اتبعها في التفكير.

2. أوغستين: نشأته وحياته.

هو (الراهب أوغستين) Saint Augustine الذي عاش ما بين 350 . 430، والقديس معناه رجل دين في الكنيسة الرومانية، وللتنويه فقط فقد لاحظنا بعض الأخطاء في الكتابات العربية وفي عديد البحوث الطلابية، حينما يقولون القديس سانت أوغستين، وذلك دلالة على شهرته عبر الاسم القداسي سانت Saint، أو الصفة Saintete القداسية والذي في حقيقة الأمر هو لقب يمنح أو يطلق

على البابا، ولهذا فإنّ مصطلح Saint بالفرنسية أو الانجليزية يعني قديس، وبالتالي لا داعي للقول القديس سانت لأنه في الحقيقة تكرار ليس في محله، وعليه فعبارة القديس أوغستين وحدها تكفي. (LAROUSSE, 2001 , p 382) اسمه الكامل أورليوس أوغستين (أوغيستينوس) وهو أحد أكبر رجال الكنيسة الكاثوليكية في الامبراطورية الرومانية، ولد بمدينة تغاست (سوق أهراس) في شمال إفريقيا (نوميديا، الجزائر حاليا)، وقد اختلف في سنة ميلاده على فريقين، فهناك مصادر تشير الى سنة 350 م (الكيالي، د س ن، ص 406)، في حين أنّ مصادر أخرى تشير الى أنه ولد سنة 354 م (Scruton, 2007, p 45.)، أما وفاته فقد تم الاتفاق عليها عند كل من تطرق لفكر رجل الدين أورليوس أوغستين، وهي سنة 430 م، ونعتقد أنّ هذا الفارق البسيط في عدد السنوات المختلف بشأنها لا يؤثر بأي حال من الأحوال في تحليلنا السياسي لتلك المرحلة من التاريخ المسيحي والعالمي، لأنّ هذه المدة اليسيرة والمقدرة بأربع سنوات لم تكن لتؤثر على حيثيات ووقائع وصيرورة الأحداث، أو حتى بالنسبة لتاريخ أوغستين الشخصي.

وقد كان أبوه وثني المذهب اعتنق المسيحية فيما بعد، أما أمه فقد كانت من عائلة مسيحية متدينة (لا نقصد هنا التدين التوحيدي وإنما مبدأ الثالوث عند الكاثوليك النصارى The Trinity) لكنها في المقابل كانت صاحبة الفضل ولعائلتها في تعليمه معاني التسامح والعبادة في الديانة المسيحية آنذاك. (الكيالي، 2002، ص 406 ، 407.) تتلمذ على يد القديس أمبروز أكبر القساوسة في روما والذي ساعده على إبصار الحقيقة على الدين المسيحي وتعاليمه، فاعتنق المسيحية وهو في سن الثانية والثلاثين من عمره، أين انكب على البحث والمثابرة باحثا عن الحقيقة، فأصبح قسيسا على مدينة هيبون Hippone وهي ولاية عنابة الجزائرية حاليا، ثم مساعدا لأسقفها ليعين في نهاية المطاف أسقفا لها. (بوللوى، 2008، ص 139 ، 140.) وهو ما دل على براعة الرجل في علم اللاهوت، ولذلك أطلق عليه لقب قديس، كلقب من ألقاب الكنيس الكاثوليكي تكريما لكل من يكون مخلصا ودافعا على المذهب قدم الكاثوليكي.

الملفت للانتباه مثل ما أشرنا في المقدمة أنّ أوغستين قد ولد بعد 25 سنة من تغيير المسيحيين لعقيدة التوحيد التي كانوا عليها، إذ تروي الروايات أنه في عام 325 م ظهر رجل مصري يدعى " أثناسيوس " وهو من عمل على تغيير الدين المسيحي الحقيقي (الذي جاء به المسيح عيسى عليه السلام)، حيث أدخل فيه كثيرا من العقائد الوثنية التي استقاها من دينه الفرعوني القديم، فقام بمزج الديانتين مع بعضهما البعض، فأخرج لهم مذهب التثليث الذي كان يسانده الامبراطور الروماني قسطنطين الأول آنذاك، وعلى إثر كتاباته الوثنية سهل من مهمة قسطنطين الأول في تسريع عقد مؤتمر عالمي في " مجمع نيقية المسكوني " للفصل في النزاع الذي نشب بين أثناسيوس وبابا

الاسكندرية من جهة، وبين قائد الموحدين أريوس الذي ذكره المفسرون المسلمون وغيرهم، بعد تفسيرهم لرسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لهرقل عظيم الروم، حين قال له: أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم الاريسيين، أي الفلاحين. (ابن كثير، د ت، ج3، ص 78.)، وبعد المناظرة بين الفريقين انتصر الحق، بقوة حجة أريوس على خصومه وفازت عقيدة التوحيد فوزا كبيرا، ولكن الامبراطور قسطنطين أمر وأجبر بالقوة على كتابة عريضة وأن يوقع عليها كل قساوسة الروم ولو اقتضى الأمر استعمال القوة، وهو ما دفع بالكثير منهم خشية البطش والتعذيب الامبراطوري الوحشي الى تغيير ديانتهم. (التركماني، 2010، ص 125 . 127.) ولعل التاريخ كثيرا ما يعيد نفسه حيث أنّ في قصة سقوط الاندلس في يد الصليبيين، ومحاكم التفتيش الوحشية التي بناها الاسبان لتعذيب المسلمين، حتى يرتدوا عن دينهم قد جعلت الكثير من الخلق يعتنقون المسيحية (ولو شكليا) تفاديا للتعذيب الوحشي الذي تعتبره بعض الأطراف الغربية بأنه حرب مقدسة وانقاذ للمسيحية من المسلمين، وتناسوا تلك المجازر الرهيبة التي لم يعرف لها العالم مثيلا من قبل.

1.2. أشهر مؤلفات أوغستين

لقد كتب أوغستين العديد من الكتب والرسائل منها وأشهرها على الاطلاق : " مدينة الله " ، " الاعترافات " ، " خواطر فيلسوف في الحياة الروحية " ، " شرح رسالة القديس يوحنا الأولى "، " تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي " ، " من أنت أيها الكاهن " ... وغيرها من الكتب، كما يُعتبر أوغستين حسب علماء الألسن واللغة أحد أكبر المنظرين لنظريات التعليم والتعلم وكيفية التدريس وشروطه ومناهجه وغيرها، مثل ما ورد ذلك في العديد من المؤلفات الغربية والعربية، وقد استطاع أن يتحكم في هذه العلوم نتيجة ولعه الشديد بطلب مختلف العلوم التي سافر لأجلها الى روما ليتلقى التعليم الكنسي من أصوله عند القديس أمبروز بابا الكنيسة الكاثوليكية .

إنّ أشهر ما كتبه أوغستين هو ما تعلق بتوضيح العلاقة بين السلطتين الدينية والزمنية: في كتابه: " مدينة الله "City of God " وبالرومانية De Civitate Dei، والذي يعتبر إسقاطا للدول المثالية على المدينة السماوية بطريقة صوفية وفلسفية، أين أبهرت علماء الدين والسياسة على حد سواء. (برنيري، 1997، ص 79.) فمدينة الله حسب التصور اللاهوتي لأوغستين تعتبر المصدر الأساسي للفلسفة المسيحية، وقد كان لهذا المؤلف الأثر البالغ على سياسة الإمبراطورية الرومانية وفي الفكر السياسي الروماني عموما، وذلك من خلال تحليله لعلاقة سلطة الدولة (السلطة الزمنية) بسلطة الكنيسة (السلطة الدينية) واشكالية التوفيق بين المتناقضات. (الكيالي، 2002، ص 407.)

وعليه فقد وصفت المراجع الغربية أفكار القديس أوغستين بمسمى الأوغستينية Augustinianism هذا الاسم الذي استطاع أن يترجم كل الأفكار السياسية المستقاة من مدينة

الله City of God وبصفة خاصة من خلال التجانس الفكري بخصوص سياسات الحكم، وتحديد مختلف العلاقات بين الدولة والكنيسة والأكثر من هذا صعوبة هو كيفية تفادي ذلك الصراع والاختلاف فيما بينهما، الامر الذي دلّ على دهائه وتبصره في نتائج ومألات الشؤون السياسية وتحديدا الحكم. (Scruton,2007,p46,)

أيضا يعد أوغستين أول كاتب تطرق الى مصطلح المجتمع المدني، انطلاقا من دراسته واطلاعه على كل من الفكر الرواقي والافلاطوني، لاسيما إسهامات الفيلسوف الروماني شيشرون، لكن أوغستين نقاها من شوائب الوثنية الرومانية وطعّمها بلقاح نصراني ديني جديد لتتناسب ومتطلبات الإيمان بالديانة الكاثوليكية الجديدة التي سعى أوغستين وغيره من رجال الدين نشرها والدفاع عنها. (شتراوس و كروبسي، 2005، ص 263.)،إذن فهذا الكتاب اعتبر ردا صريحا من رجل دين على كل المشككين في قدرة الدين المسيحي وعلى قوته في دعم الإمبراطورية الرومانية وحمايتها، خاصة وأن روما قد سقطت في يد القوطيين Gothi سنة 410 م، أين تم اتهام المسيحية حينها من طرف الوثنيين، بأن تعاليم الدين هي السبب في هذه النكسة بحكم اعتناق معظم سكان روما للمسيحية، وبالتالي فقد كانت هذه الاتهامات الخطيرة هي السبب في رد أوغستين عليهم بالعديد من الكتابات وفي مقدمتها كتابه: "مدينة الله"، متهما من خلاله الوثنية بأنها سبب بؤس الرومان، أما المسيحية حسبه فهي المخلص الوحيد الذي يحقق السعادة في الدارين الدنيا والأخرة، فالإنسان كما يراه أوغستين ذو طبيعة ثنائية وتتنازعه قوتان قوة دنيوية أرضية ميزتها الشهوانية (وهذه تمثلها الإمبراطورية)، وفي المقابل قوة سماوية تحفها العناية الربانية في إطار المدن المسيحية الأرضية التي يحيا فيها المواطن المسيحي بصفة روحانية مؤقتة إلى حين حلول الخلاص الإلهي السرمدي في مدينة الله وهو رجاء كل مسيحي مؤمن. (شوفالييه، 1985، ص 151. 152).

وفي انتظار حدوث هذا الأمر ما على الكنيسة إلاّ انتظار عودة المسيح عليه السلام ليفصل في الصراع الدائر بين مدينة الله ومدينة الشيطان، والذي سينتهي حتما بانتصار مدينة الله السماوية وظهور الحق الإلهي، لكن رغم ذلك فالكنيسة الكاثوليكية طبعا مطالبة بضرورة توحيد صفوف المسيحيين ومساعدة الإمبراطورية والقيصر في إقامة العدل ونشر السلام في الأرض، لاسيما وأنّ المسيحي في نهاية الامر هو عضو في المدينتين، كما يتمنى أوغستين أن تتبنى المدينة الزمنية الأفكار المسيحية وفي حال عدم تحقق هذا الأمل المنشود، ما على المسيحي إلاّ الصبر والخضوع لإرادة السلطة الزمنية إلى غاية صدور الخلاص الإلهي في نهاية المطاف، لأنّ حينما ستنتصر السلطة الدينية، أي سلطة السماء الإلهية مثل ما تروج له الكنيسة الكاثوليكية . (نيوف، د ت، ص 41.)

2.2. المنهج الاوغيستيني في البحث.

لقد وصفت المراجع الغربية أفكار القديس أوغستين بمسمى الأوغستينية Augustinianism ذلك الاسم الفذ الذي استطاع أن يترجم كل الأفكار السياسية المستقاة من مدينة الله City of God وبصفة خاصة من خلال التجانس المذهبي بخصوص سياسات الحكم ومختلف العلاقات بين الدولة والكنيسة. (Scruton ,2007, p 46.)،أيضا لابد من الاشارة الى أنّ جميع المراجع الغربية تتحدث في مجال التعليمية والتعلم وشؤون التدريس Didactics أنّ المنهج العلمي والتعليمي ينطلق من سقراط ثم الى أفلاطون أرسطو ثم فلاسفة الرومان كشيشرون وسينكا ثم مباشرة الى القديس أوغستين وأستاذه أمبروز الى درجة أنّ المراجع الغربية تضع أوغستين في مرتبة علمية عالية جدا، لكن لابد علينا أن نتذكر بأنه في القرون الوسطى كانت مواضيع التعليم والتربية إحدى المهام الموكلة للرهبان والقساوسة في الأديرة والكنائس، حيث كان أوغستين أحد الذين نقلوا النصوص الدينية القديمة بخط يده حين لم تكن هناك طباعة ولا خطاطين .ولعل هذا الأمر هو الذي جعل من مرتبة أوغستين مرتبة عالية جدا تضاهي مرتبة البابا في روما .ولكن التفسير الحقيقي هو أنه كان القس المتميز لدى الأباطرة الرومان الذي تحالف معهم ليقضي على الحركة الدونانية التي خرجت ضد قوانين الرومانية الجائرة والعنصرية التي تجعل من سكان شمال افريقيا مجرد عبيد وخدم للرومان . إذن لقد كانت الكنيسة في تلك المرحلة الطويلة من التاريخ الأوربي الغربي الملاذ الأول لطلب العلم والمعرفة، حيث كانت حكرا أو امتيازا من حق الأثرياء والطبقات المالكة والاقطاعية وأصحاب النفوذ والسلطة فقط، أما عامة الناس فهم عبارة عن عبيد لا يحق لهم اكتساب المعرفة، خاصة إذا كانوا من غير أبوين من أصول ذلك البلد، وقد اتضح ذلك فيما بعد بأنّ تلك السياسة كانت بهدف جعل العامة من المجتمع الاوربي لا يكتشفون التناقض والفساد الذي كانت تمارسه الكنيسة.

(PROGRAMA DE POLÍTICAS LINGÜíSTICAS,, p 7 – 8.)

إذن مما تقدم يعتبر المنهج الثيولوجي الذي اتبعه اوغستين ردا صريحا من رجل دين على كل المشككين في قدرة الدين المسيحي وعلى قوته في دعم الإمبراطورية الرومانية وحمايتها، خاصة وأن روما قد سقطت في يد القوطيين سنة 410 م وعليه تم اتهام المسيحية من طرف الوثنيين بأنها كانت السبب في هذه النكسة بحكم اعتناق معظم سكان روما للمسيحية، وبالتالي فقد كانت هذه الاتهامات الخطيرة هي السبب في رد أوغسطين عليهم، متهما الوثنية بأنها سبب بؤس الرومان، أما المسيحية حسبه فهي المخلص الوحيد الذي يحقق السعادة في الدارين الدنيوية والأخروية، فالإنسان كما يراه أوغسطين ذو طبيعة ثنائية وتتنازعه قوتان قوة دنيوية أرضية سمتها الشهوانية (تمثلها الإمبراطورية)، وقوة سماوية تحفها العناية الربانية في إطار المدن المسيحية الأرضية التي

يحيا فيها المواطن المسيحي بصفة روحانية مؤقتة إلى حين حلول الخلاص الإلهي السرمدي في مدينة الله وهو رجاء كل مسيحي مؤمن. (شوفالييه، 1985، ص 151. 152.)، وفي انتظار حدوث ذلك الأمر ما على الكنيسة إلاّ انتظار عودة المسيح عليه السلام ليفصل في الصراع الدائر بين مدينة الله ومدينة الدنيا، والذي سينتهي حتما بانتصار مدينة الله السماوية وظهور الحق الإلهي، لكن رغم ذلك فالكنيسة الكاثوليكية حسب أوغستين كانت مطالبة بضرورة توحيد صفوف المسيحيين ومساعدة الإمبراطورية والقيصر في إقامة العدل ونشر السلام في الأرض، من منطلق أن المسيحي هو عضو في المدينتين، متمنيا أن تتلاقح وتتزاوج المدينة الزمنية بالأفكار المسيحية وفي حال عدم تحقق ذلك الأمل المنشود لن يبقى على المسيحي إلاّ الصبر والخضوع لإرادة السلطة الزمنية إلى غاية صدور الخلاص الإلهي في نهاية المطاف حينما تنتصر السلطة الدينية. (نيوف، دت، ص 41.)

إنّ تلك الأفكار التي نادى بها القديس أوغسطين لم تكن في الحقيقة استثناء لأنّ الكثير من الفلسفات التي سبقته كأفلاطون وسقراط وأرسطو أو حتى فلاسفة الرومان كشيشرون وسينيكا، والتي جاءت بعده سواء عند فلاسفة وعلماء الاسلام الذين رفضوا مسألة الخروج على الحاكم بهدف حفظ النفس البشرية، ثم فلاسفة الغرب الذين جاؤوا في عصر النهضة الأوربية كميكيافلي وتوماس هوبز ولوك جون بودان ومونتسكيو...الخ، كلهم قد ساروا حذو هذا المسار حفاظا على كيان الدولة الذي يعتبر كيانا مقدسا لا يجوز المساس به أو الانتقاد لأحد مكوناته.

3. مكانة ودور الحاكم في فكر القديس أوغستين

إنّ الأفكار التي نادى بها أوغستين لم تكن استثناء، لأنّ الكثير من الفلسفات التي سبقته كأفلاطون وسقراط وأرسطو أو عند فلاسفة الرومان، أو التي جاءت فيما بعد عند المسلمين، فجميعها كانت ترفض رفضا قاطعا مسألة أن تبقى الامة أو الناس دون الحاكم وذلك للمصلحة او الغاية الكبرى وهي حفظ النفس البشرية، وقد قال العلامة ابن خلدون بأن الناس دون سلطان تؤول أمورهم الى فوضى ودماء. (ابن خلدون، 2004، ص 200. 202.)

أما التجارب والأحداث التاريخية فقد وضحت ومازالت توضح لنا كيف أنّ الأطماع السياسية للبعض وفكرة خروجهم على ملوكهم وصراعهم على السلطة، كانت سببا في سقوط الآلاف من الضحايا، بالإضافة الى الانقسامات التي حدثت عقب كل صراع، ومعلوم بالضرورة أن جميع الأديان نادت بالحفاظ على النفس البشرية، حتى ولو تطلب الأمر القبول أو الرضوخ لحكم البطش والظلم والطغيان خاصة في أوقات معينة، .

وهذا ابن تيمية شيخ الإسلام، عندما خرج عامة المسلمون في وقته على السلطان في دمشق، فإنه لم يخرج عن السلطان كما أنه لم يفتي للناس بالخرود، في المقابل كان من بين الخارجين أكثر

من 400 عالم وفقيه، فلما انتهت الفتنة أدرك الجميع بأنّ الذي كان على حق هو شيخ الاسلام ابن تيمية الذي زاده الله بها رفعة وعلوا، وفي المقابل سقط قدر وذكر الاربعمائة عالم الذين شاركوا في الفتنة وإثارة الناس. لقد قال قاضي المالكية في هذا الصدد: " ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا ". وقد أضاف " القاضي ابن مخلوف " والذي كان خصما لابن تيمية عليه رحمة الله: " ما رأينا مثل ابن تيمية , حرضنا عليه فلم نقدر عليه , وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا". (زروخي الدراجي، 2013، ص 8) أنظر كذلك: الشيخ فايز الصلاح، منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التعامل مع المخالفين،

وما يستنبط من هذا الكلام الذي عادة ما يستند إليه اوغستين في دفاعه عن السلطة الدينية، أنه حتى لو كانت السلطة الحقيقية هي السلطة الدينية، إلاّ أنّ الخضوع لقرارات السلطة الزمنية هو جزء من السعي الى الوصول الى طريق الخلاص الذي تمثله غاية السلطة الدينية، وبالتالي فإن عقيدة الخلاص عند الكاثوليك هي التي أطالت من عمر الحكم الكنسي في أوربا، وزادت من فترة حكم السلطة الزمنية كذلك.

4. صراع أوغستين مع الكنيسة الدوناتية

إنّ المستفيد الأكبر من الصراع الذي دار بين الكنيسة الكاثوليكية التي كان يتزعمها أوغستين والكنيسة الدوناتية التي كانت تحت سلطة وإدارة القس دوناتيس (وهو قس أمازيغي من شمال أفريقيا) هو الإمبراطور بصفته زعيم السلطة الزمنية، وذلك لأنّ الصراع سيعطي الفرصة لسلطة الامبراطور أحقية الفصل والتحكيم، وهو ما سوف يسهل من مهمة السيطرة على الجميع، لكن الدوناتيين رفضوا الرضوخ لأوامر الإمبراطور، هذا الأمر جعل القديس" أوغستين" يسعى الى عقد المجامع الكاثوليكية التي كان يفرض فيها إرادته وتوجهاته، ولا يتوانى في تقديم الشكاوى ضد الدوناتيين ممهدا بذلك الطريق لتدخل السلطة الزمنية في الخلافات الدائرة ما بين المسيحيين، إضافة لذلك محاولة إغراء من يتوسّم فيهم النزوع والشقاق من الدوناتيين كمحاولة لضرب الحركة من الداخل وبالتالي تفتيتها، وعليه استطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تنجح في امتصاص قوّة الدوناتيين، وتفتيتهم ... بل وقد اعترف أوغستين بالعنف الذي مارسه ضد أي حركة تمرد، كما أنه طلب من السلطات الرومانية أن تساعده في القضاء على ظهور أي بدعة وفي مقدمتها حركة الدوناتية المعادية للكاثوليكية التي يتبعها أوغستين. (عمران، 2017، ص 82.)

وهنا يظهر جليا أنّ هذا الصراع قد دفع بأوغستين الى الاستنجاد بالسلطة الزمنية لمحاربة خصومه، وهو ما يوضح فكرة لماذا كان أوغستين دائما في كتاباته يبرر سياسة الظلم والقهر الذي مارسته السلطة الزمنية على المواطنين. وفي الحقيقة تعتبر السلطة الزمنية التي كان يرأسها

الامبراطور، المؤسسة الوحيدة التي سمحت بظهور فكر القديس أوغستين من خلال تدعيم كتاباته وبحوثه التي كانت في الحقيقة أفكار في خدمة مصالح السلطة الزمنية.

وكتحليل واقعي نجد انّ حركة الصراع في التاريخ البشري دائما تميل الى جعل متغير القوة المتغير الأساسي في الحكم على الأمور، وعلى سبيل المثال لو افترضنا أن الحركة الدوناتية بزعامة دوناتيس هي التي كانت تخدم مصالح الامبراطور، فسوف يقوم هذا الاخير بالتحالف معها وتأييدها وإعلاء شأنها بين كل المذاهب، ولكن المصلحة اقتضت أن تتحالف الوثنية الإمبراطورية مع الفكر الكنسي الكاثوليكي الذي لا يتعارض من حيث المبدأ مع الافكار الوثنية، يقول الله عز وجل في القرآن الكريم: " اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ " (التوبة، الاية 31)

كما أنّ قصة الامام والقاضي أبو بكر الباقلاني مع ملك الروم تلخص لنا فساد العقيدة التي يتبعها النصارى، إذ كيف يعقل أن ينزه القساوسة والرهبان عن الزوجة والاولاد، وينسب كل ذلك لله الواحد القهار، وبالتالي فهذا يدل على فساد الرأي، بالإضافة الى تقسيم الناس الى طبقات ومراتب وغيرها من الطقوس التمييزية التي تميز هذا عن ذاك.

وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم ليبين للعالمين أن الناس سواسية ولا معيار للحكم على أفضلية أحدهم على الاخر إلاّ بمعيار واحد وهو التقوى. ويقول الله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (سورة الحجرات، الاية 13) وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: " لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى " . رواه الامام احمد وغيره. وعليه فلا يجوز أبداً اعتبار غير ذلك من الموازين من جنس أو لون أو لغة أو عشيرة. ولكن ما كان سائدا في فترة الامبراطورية الرومانية أن التمييز بين الناس والعبودية والطبقية كانت منتشرة بكثرة، حتى أولئك الفلاسفة والكتاب ورجال الدين الذين كتبوا في تلك المرحلة، إنما كانوا يعتبرون الانسان او المواطن هو فقط من تتوفر فيه شروط أن يكون والده أو أمه رومانية خالصة.

ولعل من غرائب الأمور أن يكون القديس أوغستين معروفا لدى الجزائريين ويكون الشخص المجهول هو القس الأمازيغي دوناتيس، ولذلك يجب أن نعلم بأنّ التاريخ دائما يكتب بأقلام الأقوياء أو بأقلام المنتصرين، حيث نجد الاستعمار الفرنسي في الجزائر والذي حكم بالحديد والنار لما يربو على 130 سنة، حيث عمل كل ما في وسعه لتبيض صورة رجل الدين أوغستين وإظهاره بمظهر الحمامة التي تحمل غصن السلام، والشيء الذي لا يكاد يروى أنّ هناك من المراجع ما تؤكد على أنّ الجيوش الفرنسية عندما احتلت مدينة عنابة التي دفن بها أوغستين، فقام قادة الحملة الفرنسية

بوضع قوس على شكل قرني شيطان وكتبوا عليها عبارة: " ها هي هيبون (عنابة) رجعت إليك يا أوغستين " والمقصود بهذا الكلام أنهم انتزعوا تلك المدينة وغيرها من الاسلام، ولذلك تمت سياسة التنصير في الجزائر بطريقة منهجية ومكثفة أكثر من باقي مستعمراتها الأخرى. وهنا وللمعلومة نجد أنّ جيش التحرير الوطني الذي حرر الجزائر من الاستدمار الفرنسي، قد حفظ الدرس جيدا، فكان هناك من ردد عبارة من الشعر الشعبي الجزائري: "أمُحمَّد" مبروك عليك الجزائر رجعت ليك.. "(وهو يقصد النبي صلى الله عليه وسلم)، والتي أصبحت تغنى وتنشد في العديد من المناسبات الدينية والوطنية في الجزائر. (الحسني، أمُحمَّد مبروك عليك .. الجزائر رجعت ليك ، وهذا يدل على أنّ فهم التاريخ وحفظه هو أساس حياة الأمة. وفي هذا قال أحد الملوك لإبنه: " يا بني إذا أردت أن تسود العالم فعليك بالتاريخ. فالتاريخ يعلم الناس كيف لا يقع في أخطاء الماضي، بل وكيف يتفاداها. إنّ الحقيقة التي لا يريد لها الغرب أن تظهر، طبعا إلاّ المنصفون منهم أنّ هذا الذي يصفونه بالقديس في الحقيقة ما هو إلا رجل كاثوليكي لا يهمه إلاّ مصلحته، حيث عمل على استخدام القوات الرومانية للقضاء على أي تواجد سواء للموحدين المسيحيين الذين لم يقبلوا بعقيدة التثليث التي تم اعتمادها في مؤتمر نيقية الشهير عام 325 م، أو غيرهم ممن خالفوهم في الاعتقاد، وعليه حاربوا القديس دوناتوس أو دونا الكبير Donatus Magnus الذي كان رجل دين مسيحي من البربر وقد اعتبر حينها أكبر قس في شمال إفريقيا، ذلك القس الذي صار له أتباع كثر من جميع المذاهب، حيث أنّ تلك تلك المذاهب التي كانت رافضة للسيطرة والوثنية الرومانية بل وحتى للعقيدة التثليثية التي كان يؤمن بها أوغستين.

كذلك لابد أن نعترف بأنّ أوغستين قد تميز بالدهاء الشديد، وذلك حينما قام بمحاولة إحداث الشقاق والفرقة بين أنصار الكنيسة الدوناتية في شمال افريقيا عبر تدعيم عصابة منشقة من الدوناتيين مقابل المال والسلطة طبعا حيث تعمل هذه العصابة على ترويع وقتل السكان حتى ينفضوا من حول الدوناتيين الحقيين، لكن عقلية التسلط والتجبر الروماني والاغترار بالقوة جعلت الاهالي البربر يكتشفون خيوط اللعبة القذرة التي حاك خيوطها اوغستين مع الامبراطور الروماني، حيث فشلت كل محاولاتهم وعندما عجزوا عن مواجهة الواقع بالقوة سعو الى عقد مؤتمر الصلح عام 337 وقد كان ذلك الامر مجرد حيلة لدراسة واكتشاف نقاط ضعف الدوناتيين وعليه لم ينجح مؤتمر الصلح فبدات الامبراطورية الرومانية في اصدار قوانين وكان المنفذ لها هو اوغستين الحاقد على الدوناتيين فحكمت تلك القوانين على تسليم املاك الدوناتيين وكنائسهم الى المسيحيين الكاثثوليك وارتكبت مجازر شنيعة في حق الدوناتيين، ولذلك لا يريد مؤرخوا الغرب التطرق لها. (عمران، 2017، ص 82. 84.)

إذن لقد سعت الامبراطورية الرومانية الى عقد مؤتمر الصلح بعد وفاة الامبراطور قسطنطين في 22 ماي 337 مقر عقيدة التثليث في الامبراطورية، من خلال مجمع نيقية بالقسطنطينية 325م، ثم خلفه ابنه قسطانتينوس الذي أصدر عام 338 قانونا امبراطوريا موجها الى الافارقة (العبيد) في إطار سياسة المهادنة واللين، لكنه مرة أخرى فشل فشلا ذريعا في استمالة الدوناتيين الذين اكتشفوا مناورته السياسية المؤقتة، ثم لجأ عام 347 م الى اضطهاد كل الطوائف المنشقة عن الارادة الرومانية وأمر بمصادرة جميع الكنائس والممتلكات والاراضي لصالح الكنيسة الكاثوليكية الاوغيستينية. (عولمي، 2019، ص 271. 274.)

5. النظرية السياسية في فكر أوغستين(الدولة وشؤون الحكم)

في هذا العنصر من الدراسة سوف نتطرق الى منظور أوغستين لمواضيع الفصل بين السلطات، الدولة، طبيعة نظم الحكم، وموضوع العدالة وهو ما سوف نتطرق له في العناصر الموالية بالتفصيل.

1.5. الفصل بين السلطات عند القديس أوغستين

إن المرحلة التاريخية التي ولد فيها أوغستين كانت مرحلة حاسمة، اشتد فيها الجدل حول قضية من الأولى بالطاعة والمتابعة هل هي السلطة الدينية ممثلة في الكنيسة ورجالها أم أنها السلطة الزمنية ممثلة في شخص الامبراطور، فبالرغم من اعتناق الرومان للمسيحية التي اضطهدوها وحاربوها في بداية ظهورها على يد المسيح عليه السلام، إلاّ أنهم فيما بعد اختاروا أن يخوضوا مناورة سياسية تتأسس على فكرة الالتفاف حول المسيحية عبر إلباسها الثوب الروماني الوثني خدمة للامبراطور وأتباعه من رجال الدولة. (نيوف، دت، ص 37. 38.) وقد تحدثنا سابقا على أنّ عقيدة التثليث ما هي إلاّ وثنية ألبست لباسا دينيا وذلك ظاهر من التشابه الكبير فيما بينها وبين الوثنية، فالمسيحية بعد اعتناقها من طرف الامبراطورية الرومانية، فعوض أن تتأثر الإمبراطورية الرزمانية الزمنية بالمسيحية في الواقع حدث العكس بحيث تأثرت الكنيسة بالكثير من الطقوس الوثنية التي كانت سائدة من قبل.

ومن خلال ما حدث فقد تعرض القديس أوغستين إلى هذا الامتحان الصعب في مواجهة السلطة الزمنية، أي نفس ما تعرض له السيد المسيح قبل ذلك، في السؤال الفخ: من أولى بالطاعة والمتابعة القيصر أم التعاليم المسيحية؟ ولقد كانت إجابة السيد المسيح مفحمة لمن أرادوا الإطاحة به من الماديين والوثنيين آنذاك، من خلال مقولته الشهيرة: " أعطوا للقيصر ما هو لقيصر ولله ما هو لله. " (بوللوى، 2008، ص 140.)، أيضا يظهر من جملة ما قدمه القديس أوغستين من أفكار أنه تأثر تأثرا كبيرا بأفكار أستاذه القديس أمبروز Ambroise لاسيما في مسألة ضرورة التمييز بين

سلطة الكنيسة وسلطة الإمبراطور، ولعله تحدث في منظوره هذا عن ضرورة إرساء مبدأ الفصل بين السلطات، ففي هذا الصدد يقول جون جاك شوفالييه مؤلف كتاب: تاريخ الفكر السياسي من المدينة الى الدولة القومية، بأنّ كل سلطة من تلك السلطتين يجب أن تتقيد بحدود الرسالة الموكلة إليها، ومن حق الكنيسة بالاستناد إلى الرسالة الروحية التي تتمتع بها أن تدين الجميع من حكام ومحكومين إذا وقعوا في الخطيئة، لأنهم جميعا في نهاية المطاف هم أبناء الكنيسة، الذين يلتزمون بإتباع سلطة أحبار الكنيسة ورثة يسوع والحواريين. (شوفالييه، 1985، ص 158.) ويبدو هنا أنّ القديس أمبروز قد كان أكثر وضوحا في تحديد العلاقة بين السلطتين، إذ تحدث عن ضرورة الفصل بينهما، ولهذا فكل سلطة لها الحق أن تختص بمجالات خاصة بها لا يجوز للسلطة الأخرى التدخل فيها.

أما أوغستين فلم يساند الطرح الذي اختاره أستاذه القديس امبروز، ولهذا فقد كان أكثر حذرا من غدر الإمبراطور، فقد كان قارئا جيدا للتاريخ، وما زمن أريوس وجماعته منه ببعيد، ولذلك فقد شدد على ضرورة التنسيق جنبا إلى جنب بين الكنيسة والإمبراطورية كل حسب اختصاصاته، في سياق تطبيقي لتكامل الأدوار بين ما هو مادي وما هو روحي، وتبقى في نهاية الأمر السلطة الدينية متمتعة بصفة الشمول لأنها تتأسس على رابطة سماوية أبدية وهو ما جسدته كتاباته حول مدينة الله والتي يجب أن تبقى غاية السلطتين، وهذا ليس غريبا على رجل دين هدفه علو الكنيسة على باقي السلطات.

ثم برزت الى العلن مسألة تجزئة الولاء، من خلال نقاشات السلطتين عبر إثارة السؤال المركزي: هل يكون ولاء الانسان الى أوامر الله وتعاليم الوحي السماوي أم أنّ الولاء يكون للإمبراطور ولسلطة الحكام والملوك.؟ ولكن بعدما خبر رجال الدين الكنسيين بطش وسطوة الامبراطور ورجاله قاموا بتكييف العقائد الدينية مع المتطلبات السياسية، حيث عطفوا سلطة الإمبراطور على سلطة الله وأكدوا على أنّ من يقاوم أو يتمرد على سلطة الحاكم فهو كمن يتمرد على سلطة الله، وقد كان هذا التيار ممثلا في كل القديس بطرس وكذلك القديس بولس ومن جاء بعدهم. قال القديس بولس في " توراة القدس " : " أنتم أيها الخدم اخضعوا لسادتكم بكل مهابة، لا للصالحين منهم والمترفعين بل لأولي العنف أيضا "(بوللوى، 2008، ص 137.) وهذا فيه دعوى صريحة لحث العامة بقبول السيطرة الامبراطورية على الجميع، وبالتالي فهي صفقة بين السلطتين.

2.5. الدولة عند القديس أوغستين

ينطلق القديس أوغستين في مسألة نشأة الدولة من الفكرة المسيحية القائلة بأنّ الإنسان خير بطبعه وقد كان يعيش مع أخيه الإنسان دون الحاجة إلى وجود سلطة قهرية تنظم العلاقات فيما بينه وبين باقي البشر، وبوقوع الإنسان في الخطيئة ظهرت إلى الوجود سلطة بشرية أعلى من

سلطة باقي البشر، هدفها هو تنظيم الحياة والقضاء على الخلافات والتجاوزات، فكان الاباطرة والملوك هم المنظمون والضابطون لتلك العلاقات، ومنه فما على المسيحي إلاّ أن يتقبل هذا الوضع المؤقت (الحياة الدنيا)، حتى وإن كانت هذه العلاقة علاقة عبد بسيده، فهذه العبودية هي في جوهرها حرية بحكم أنه بهذا يقدم فدية للخطيئة المرتكبة، وبالتالي فما على المسيحي المخلص إلاّ أن يمجد أي سلطة حاكم دنيوي وإن كانت غير عادلة، لأنّ الحياة الحقيقية هي التي في عالم السماء لا التي في عالم الأرض. (بوللوى، 2008، ص 142.)

لقد كان من الطبيعي جدا أن يظهر مثل ذلك الخلاف بين السلطتين، خاصة في ظل عدم وضوح الرؤية لدى العامة والأتباع حول سؤال من الأولى بالإتباع والطاعة، هل هي الكنيسة ومختلف رجالها (الاكليروس) Clergyman; Cleric أم أنها الدولة ممثلة في الإمبراطور وأتباعه؟ وعليه فقد كان ذلك السؤال عميقا وخطيرا في ذات الوقت، وأن أي محاولة للإجابة عنه من طرف رجل دين غير متبصر بمآلات الأمور سوف يؤدي إلى فوضى عارمة وحروب طاحنة لا يتصور أحد مخرجاتها، ولكن الحكمة والبصيرة التي صبغت كلام المسيح أفحمت كل الذين أرادوا الاستفادة من مكاسب دنيوية وسياسية على حساب دماء الأبرياء والضعفاء، دع لقيصر ما لقيصر وما لله لله.

في حقيقة الحال ذلك الجدل الذي قام هو سمة عامة في غالبية الأديان، لاسيما إذا كان الموضوع حول أحقية أو أسبقية الدولة الدينية أم الزمنية في الحكم، وكذلك في عقدة تحديد الفرق بينهما، فالدولة بمختلف أدواتها السياسية والقانونية ضرورة لازمة وضرورية لإصلاح وترتيب أمور الناس، وأنّ ترك الأمور دون قيام دولة ودون رأس يسوسها سوف يؤدي إلى الفوضى العارمة التي لن يقبلها أي شخص عاقل ناهيك إذا كان بحجم القديس أوغستين، وطبعا هذا الجدل لم ينحصر في النصارى بل ظهر كذلك عند المسلمين في مسألة: هل أقام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دولة مدنية أم دينية؟ طبعا بين مؤيد ومخالف ولكل حججه وبراهينه. (عبد الكريم، 1995، ص 5، 19) لكن هناك شبه إجماع واتفاق بين العلماء على ضرورة وجود حاكم أو قائد، ولسنا هنا بصدد تأييد هذا أو تفنيد ذاك، بقدر ما نحن مطالبين على ضرورة التأكيد من مسألة وجود نبي أو رسول أو قائد أو ملك أو إمبراطور سواء كان حكمه دنيويا أو دينيا مؤيدا بوحي السماء...الخ، لقيادة وترأس هذه الأمة أو تلك، لأنّ الأمر بدون رأس لا تستقيم أموره، بل لقد تعدى الأمر ببعض علماء وفقهاء الاسلام أن قالوا : " يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ".

وها هو ابن خلدون ينطلق لتبرير هذا الطرح من الطبيعة العدوانية والحيوانية للبشر، التي لا يمكن كبحها ولا التحكم فيها إلاّ عبر تنصيب حاكم يزع الناس عن بعضهم البعض، فيكون الحاكم هو الحائل بينهم وبين الفوضى والهرج وسفك الدماء وإزهاق الأرواح والممتلكات. (ابن خلدون، 2004،

ص201). وقد قال أحد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين: يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ولذلك فإنّ قوانين السماء لا تكفي أن تطبق لوحدها دون وجود حاكم أو خليفة على الأرض يمتلك كافة أدوات الضبط أو الإكراه المادي ضد الآخرين، طبعا مع أفضلية أن يكون حاكما مستندا في حكمه وجميع أموره الى القوانين والتشريعات، لكن في المقابل هناك من قال بأنّ هذه الأفكار التي نادي بها القديس أوغسطين تعتبر أفكارا مثالية اقتبست من أفكار جمهورية أفلاطون حول العدالة والمثالية، وهو ما يبين مدى تأثر أوغستين بكتابات أفلاطون خاصة كتاب الجمهورية الذي كان ينادي فيه إلى ضرورة وصول الإنسان إلى عالم المثل الذي يعتبر عالم الحقيقة والغاية الكبرى التي يسعى اليها كل انسان. (Scruton,2007, p46.)

وفي هذا الصدد قال القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه: المغنى في العدل والتوحيد" .. إن النصرانية ترومت (من الروم) فأخذت تقاليد الرومان وأخلاقهم وبآراء الفلاسفة اليونان وعقائدهم بما في ذلك التثليث الذي ذهبت إليه الفلسفة في توحيدها بين العقل والعاقل والمعقول، ولم تكن الروم هي التي تنصرت ..." ومنه فقد تأثرت النصرانية بالعادات والتقاليد والأخلاق الرومانية التي كانت في معظمها أخلاقا وثنية، وهو الأمر الذي دعا الى وصف: " الديانة الرومانية بالنصرانية " ولم يقل المسيحية، وذلك لسبب أساسي وهو أنّ الديانة المسيحية كانت على خطى المسيح إلى غاية أن تم تحريفها وانتشرت الاعتقادات المزيفة كالتثليث وتأليه عيسى عليه السلام وأمه، بل وتأليه غيره من الأساقفة والباباوات (والعياذ بالله)، هذا بالإضافة الى ظهور العديد من الأباطيل التي وردت في الكثير من الأناجيل الغربية. (بوللوى، 2008 ، ص 127، 131 .135.)

وهذا ما يجعلنا نقول بأنّ أوغستين وعلى الرغم من معارضته للأفكار الوثنية التي كانت منتشرة بين أباطرة الرومان، لكن وبهدف تفادي الفتنة واللاستقرار فقد عمد الى انتهاج قاعدة التوفيق بين السلطتين الزمنية والدينية، بالإضافة الى تخوفه من فقدان المكانة التي كان هو ومن معه من القساوسة والرهبان يتمتعون بها في ظل سكوتهم عن تجاوزات الإمبراطور في حق الرعية.

3.5. طبيعة نظام الحكم عند القديس أوغستين

رغم تأثر القديس أوغستين بأفكار الجمهورية لأفلاطون، إلاّ أنّه لم يعتمد تصنيف للحكومات ولا لأنظمة الحكم، كما لم يتطرق إلى سمات ومزايا نظام الحكم الأمثل أو الأحسن، لأنه يعتبر أن الأنظمة الأرضية مهما بلغت من العدالة والمساواة فإنها في نهاية المطاف أنظمة زائلة، أما النظام الباقي والمثالي والذي يجب أن يطمح إليه كل مسيحي مؤمن هو النظام السماوي السرمدي الذي يعتبر مكافأة للبشر على معاناتهم في الدنيا، ثم عاد أوغستين في موضع اخر وأكد بأنّه لا فرق بين نظام الحكم المتبع سواء كان ملكيا أو ديمقراطيا أو ارستقراطيا، أو ثيموقراسيا المهم أن يكون

عادلا، وهو ما دفعنا إلى فتح الباب على مصراعيه من خلال طرح التساؤل العميق لماذا ركز أوغسطين على فكرة العدالة لاستمرار الدولة والكنيسة وكذلك ولاء وطاعة الجماهير.

لقد كان أوغستين رجل دين ذو نظرة متفحصة وثاقبة، بحيث أراد أن يوفق بين نقيضين لطالما لم يتفقا، فمن جهة يدعو الى التعاون والتكامل بين الكيانين، ومن جهة أخرى يؤكد على درجة رفعة وعلو الكنيسة على الإمبراطورية، ولإضفاء صفة الشرعية على أعمال الإمبراطورية والتغطية على العديد من تجاوزاتها، دعت الكنيسة إلى ضرورة تربية الأفراد والجماهير على الولاء والطاعة للدولة وتمجيد الإمبراطور والتسليم بكل قراراته حتى وإن كانت جائرة وغير عادلة، وفي المقابل تقدم الدولة خدمة موازية من خلال توفير كل الوسائل والإمكانيات للتبشير بالمسيحية ومحاربة كل الذين شقوا عصا الطاعة عن الكنيسة ورجال الدين. (بوللوى، 2008، ص 143.144) ، وهنا يتضح بأنّ الكنيسة قد وضفت القوات العسكرية للامبراطورية الرومانية في تأديب كل من تسول له نفسه الخروج عن تعاليم المجالس الكنسية أو التمرد في عدم دفع الضريبة وغيرها.

وعلى الرغم من أنّ نية النبلاء لم تكن تنوي تحرير الفكر بالنسبة للعامة، وإنما كانت تلك الطبقة تنوي تحصيل مكاسب ضيقة خاصة بها، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فأصبحت تلك الوثيقة مستندا لكل مطالب بالحرية في أوربا ثم في العالم أجمع، وبعد ذلك كان ذلك الحدث بداية لبناء وتأسيس الدساتير الأوربية وانطلاق عصر الحرية والافكار الديمقراطية التي تعيشها أوربا والشعوب الغربية عامة اليوم. (VONRANKE, without place or year of Edition, pp 47 – 58.)،أما فيما يتعلق بالمجتمع المدني فلا يجب أن نغفل دور أوغستين في التطرق لهذا المصطلح الأساسي الذي شهد ثورة فكرية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ورغم أنّ العديد من الباحثين قد يعتقدون بأنّ الكنيسة لم تولي أي اهتمام للمجتمع المدني، إلاّ أنّ الغريب في الأمر أن القديس أوغستين يعد أول كاتب تطرق الى مصطلح المجتمع المدني متأثرا في ذلك بالفكر الرواقي والأفلاطوني، لكنه استطاع أن ينقي هذا المصطلح من شوائب الوثنية، والأكثر من هذا أنه عمل على تطعيمها بلقاح مسيحي روحي لتتناسب ومتطلبات الإيمان الكاثوليكي . (شتراوس وكربسي، 2005، ص 263.)

4.5. العدالة عند القديس أوغستين

فيما يتعلق بموضوع العدالة من حيث أنه موضوع حساس، حيث تحدث معظم الفلاسفة والعلماء عبر تطور تاريخ الأفكار والنظريات عن هذا الموضوع الحساس، ذلك لأنّ كل الديانات قد تحدثت عن العدالة وضرورة قيامها ورعايتها في كل مؤسسات الدولة، ونشرها بين كل فئات وطبقات المجتمع، وكما هو معلوم ما انتشر الفساد في قوم أو نظام إلاّ لأنّ الأحكام والقوانين وحتى الشرائع فيه لا تطبق، ولذلك يجد المجرمون غايتهم في مثل هذه الأجواء، التي في الحقيقة توفر لهم المزيد من

التعدي على حرية وحياة الأخرين، ولذلك فقد ربط أوغسطين فكرة العدالة بالمسيحية، بحيث لا عدالة حسبه دون الانقياد والتطبيق لمبادئ الدين المسيحي، كما أنه نفى كل قدرة للقوانين الوضعية على إقامة العدالة الكاملة، ويستدل على ذلك بالحوادث التاريخية التي تعرضت لها كل من روما وأثينا من قبلها، إذ كانت تلك القوانين الوضعية سببا في إذكاء نار الفتنة والصراع والتناحر بحكم أنّ من وضع القانون كان دائما في صف الأقوياء وفي خدمة مصالحهم، أما القانون الإلهي الأسمى فهو لا يحابي أحدا ولا يميز بين الناس، ثم يشير مرة أخرى إلى أنّه من الصعب تطبيق القوانين الإلهية كاملة في ظل دول وثنية، ولذلك لا بأس بتطبيق القدر المستطاع منها، أي أنه يعود مرة أخرى ليبرر للإمبراطور انتهاكه للعدالة وللقوانين بحجة حماية الدولة ومصالحها.

ولا غرابة إطلاقا في تركيز أوغسين على فكرة العدالة، وذلك لأننا مثلا كمسلمين نقرأ دائما أنّ من أسماء الله الحسنى العدل، والعدل هو نظام لكل شيء وصلاح كل أمر، وميزان الأمور والأحكام كلها، وبالعدل أقام الله عز وجل السموات والأرض وبالعدل أنزل الله الرسل وبعث بالرسالات والشرائع، وبه أمر خلقه. (عويسات، 2010، ص 35.) يقول الله عز وجل في محكم تنزيله " إنَ الله يأمر بالعدل والإحسان " سورة النحل الآية 90. ولكن هل كانت نظرة أوغستين للعدالة على أنها أمر لازم وواجب تطبيقه على كل الرعية من دون أي تمييز أو تحيز أم أنه كانت هناك تحيزات وطبقية؟ في حقيقة الحال نظريا على الرغم من أنّ أفكارهم بشكل عام قد لا تدعوا للتفريق بين الناس، إلاّ أنّ الواقع العملي والتطبيق الميداني الذي كان معمولا به، عادة ما كان يضع رجال الكنيسة وكبار القادة العسكريين والنبلاء وكبار ملاك الأراضي في مراتب أعلى، لدرجة أنّ البعض من رجال الدين والكتاب في الغرب يبررون ذلك بأنها إرادة الله التي جعلتهم ينالون تلك المراتب، بل وأنهم مختارون من الله لأن قلوبهم بيضاء نقية صافية، أما الفقراء والمساكين قد خلقوا هكذا، ذلك لأنهم أشرار، والدليل على أنهم أشرار ، هو أنّ الله ابتلاهم بالفقر والألم والآفات وغيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في موضوع العدل: " وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، وذلك أن العدل نظام كل شيء. فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة. " (عويسات، 2010، ص 35.) كما أنّ المسعودي حكى في أخبار الفرس عن الموبذان رجل الدين فيهم أيام الملك بهرام بن بهرام، حيث أنكر ما كان عليه حال الملك من الظلم وإهمال شؤون الرعية فقال له ناصحا: " أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة، والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل" (ابن خلدون، 2004، ص 300.)

ومن هنا يتضح جليا أنّ أوغستين قد كان يتمتع بنظر ثاقب لعواقب الأمور ومآلاتها، وبالتالي هذا الأمر قد دعا معظم التيارات الفكرية المسيحية التي جاءت بعد أوغستين إلى عدم الخروج عن تلك الخطوط العريضة التي رسمها لهم في تصوراته عن التوجه السياسي بصفة عامة، سواء كان ذلك عن علاقة السلطتين ببعضهما البعض، أو بصفة خاصة عن الدولة ونظام الحكم والعدالة وغيرها...الخ، وهو الأمر الذي مثله فيما بعد كل من البابا جيلاس الأول Gélase1 er، والقديس غريغوري الكبير Grégorie Le Grand في فترة حكمهما. (شوفالييه، 1985، ص 161.).

6. الخاتمة

بعد هذا التحليل توصلنا الى أن أوغستين قد استطاع وبذكاء كبير أن يفرض أفكاره على الامبراطورية الرومانية، وأن يوجه هذا الصراع بين السلطتين وجهة في صالح الكنيسة، بحيث امتصت تلك الافكار التي خرجت من عقول رجال الدين من أمثال القديس أمبروز وأوغستين، تأثيرات الصدام والصراع، مما حال دون وقوع الصدام، بل لقد توصل الطرفان الى الاتفاق على تسوية مقبولة للطرفين، ولعل الرعية او المجتمعات هي التي تحملت تبعات ذلك الاتفاق وتلك التسوية، من خلال ضرورة الرضوخ والقبول بما أراده الله، ويبقى الجزاء في الاخرة، حيث ينال المواطن نتيجة دفعه للضرائب حتى وإن كانت تلك الضرائب جائرة الجنة والسعادة الابدية. فالعالم الأخروي هو العالم الاسمى الذي يجب على المواطن النصراني أن يصل إليه. بينما كل الظلم الذي قد يمارس عليه لاسيما من طرف السلطة الزمنية هو في الحقيقة المدخل والجواز الذي يدفعه البعض لنيل المراتب في الاخرة.

وبهذا التوجه الذكي والتنظير المحكم تمكنت الكنيسة الكاثوليكية التي يتزعمها قساوسة من أمثال أمبروز، أوغيستين، جيلاس الأول، غريغوري و فيما بعد توماس الاكويني ...الخ، أن تحافظ على تماسك الامبراطورية الرومانية لعدة قرون، بالإضافة الى المحافظة على المصالح المتبادلة بين الكنيسة وسلطات الامبراطور، ثم فيما بعد وبعد بداية ضعف الامبراطورية بدأت سلطات الكنيسة في التزايد وعاشت أوربا عصورا مازال يصطلح عليها عصور الظلام، تلك العصور التي كان الخيال والشعوذة والقصص الخرافية المتحكم الكبير في توجهات العامة.

وبحلول عصر النهضة وانتشار الافكار العلمانية التي جاءت بها أفكار الفلاسفة التنويرين استطاعت العلمانية أن تجعل الكنيسة الكاثوليكية خاصة حبيسة جدرانها، أما ملوك أوربا فقد ركبوا الموجة العلمانية الجديدة وساعدوا على تهميش دور الكنيسة في مقابل الدعم المطلق للعلمانية.

أيضا إنّ معظم المصادر التاريخية قد ركزت على أفكار القديس أوغستين واهملت باقي التيارات الفكرية والمفكرين الذين عاصروا فترة حياته وحكمه في الكنيسة الكاثوليكية، هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد أهملوا وحرفوا حقيقة الصراع الذي دار بين الكنيسة الكاثوليكية والدوناتية، مع حقيقة أنّ الدوناتية قد وقفت في وجه عقيدة التثليث الفاسدة التي كانت تتبناها الامبراطورية الرومانية تماشيا مع عقيد الاباطرة التي كانت وثنية في الأساس.

5. قائمة المراجع:

أولا: المراجع باللغة العربية

- الكيالي عبد الوهاب، (2002)، موسوعة السياسة، ج1، الدار العربية للدراسات والنشر. بيروت.
- بوللوى ياسين فوزي، (2008) محاضرات في الفكر السياسي، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- الترباني جهاد، (2010)، مائة من عظماء أمة الاسلام غيروا مجرى التاريخ، دار التقوى للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة.
- برنيري ماريا لويزا، (1997)، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، مراجعة عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، (2005) تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديدس حتى سبينوزا، ترجمة محمد سيد احمد، ج1، المجلس الاعلى للثقافة، مصر.
- علي نيوف صلاح، (دت) مدخل إلى الفكر السياسي الغربي، ج1، طبع كلية القانون والأكاديمية العربية، الدنمارك.
- شوفالييه جان جاك، (1985)، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الى الدولة القومية، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والفكر، بيروت
- زروخي الدراجي، (2013)، ابن تيمية كما يجب ان يفهم، دار صبحي للطباعة والنشر، الجزائر.
- عبد الكريم خليل، (1995)، الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، دار سينا للنشر القاهرة.

- ابن خلدون عبد الرحمان، (2004) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المسمى بالمقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- **المقالات:**
- عوسات عبد الغني، (2010)، العدل. حقيقته وأهميته، مجلة الإصلاح، العدد 18، دار الفضيلة للنشر والتوزيع الجزائر.ص28-46

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية

مراجع بالأجنبية:

- Maury – Euro livres(2001) , Larousse Dictionnaire de Français, 2 Emme Edition, France .
- Roger Scruton, (2007) The Palgrave Macmillan Dictionary of Political Throught, 3 rd Edition, New York : palgrave Macmillan.
- LEOPOLD VON RANKE, A HISTORY OF ENGLAND, principally in the seventeeth century, Vol, without place or year of Edition.
- PROGRAMA DE POLÍTICAS LINGÜíSTICAS, Self Access Booklets for student – teacher – of English at CFE . First series introducing Didactics.